علي كنعان

غربة صوفيّ آخر

سِربٌ على الأفقِ المدمّى
في ضواحي آسيا
أقوى من الصَّوّانِ لا ينتابُه صَدَأٌ
وإنْ صدِئَ الذَّهب.
سِربٌ من الخُلاَّنِ، أغلى من كنوز الأرضِ
أصفى من ينابيع الجبال
سِربٌ من الريحانِ والدفلى
تحاصره الظلال
ويكاد يخنقه سؤال:
«هل بِعتَ روحك في بلاط العنكبوت؟
أم خِفتَ من أشباحه المرضى
فآثرت التَّهرُّبَ والسكوت؟»
- لا، يا وجوه الخير والبشرى
ويا أبهى رياحين الوطن
ما كنتُ ممن يأكلون لحومَ إخوتهم
ولا حتى أعاديهم
وقلبي لن يكون
حجراً تحركه الضغائنُ والظّنون
لكنَّ غيماً لا يطاقُ
يشدُّ حبلاً من مخالبه على عنقي
يشوِّفني نجومَ الظّهرِ في نومي
وفي صحوي
وفي غبشِ الخُمار
هل كان في لوح القبائلِ من بديلٍ
لارتطامي بالمدى
بين اختناقٍ وانفجار
هل كان لي غير الفرار؟!

- مهلاً فقد يسطو على أنفاسنا
ما ليس في الحسبان
والشيخ أرهقه التجافي وهو لا يدري..
من أين تُجلَبُ نعمةُ النسيان!
فلنترك الأرواحَ تكمل هلوساتِ الوجدِ
في دبقِ السكوت
ولنغلقِ الذكرى على أسرارها البيضاءِ والسوداءِ
لا جدوى لمن خسر الرهان
أهناك من جدوى لمن كسب الرهان؟!
هل في فضاء الله من أفقٍ بلا أحزان؟
أهناك من بحرٍ بلا موج وحيتان..
ولا حتى دوار؟!
أم في كتابِ الغيبِ من ركنٍ
لإكمال الحوار؟

- ١ -

قمرٌ في آخر الدُّنيا يناديكَ..
فهل تخشى على الأحبابِ من بردِ اللّيالي
في نهاياتِ خريفِ العمرِ
إنْ لبّيتَ ميعادَ القمرِ؟
فانخَطِفْ عبرَ المداراتِ بلا ظل
ولا تحفلْ بفرسانِ التّكايا
يتغنَّون بمنهوك الرَّجز
فلدى بَوّابَة الميناءِ
نيسان يلاقيك بأسراب الغرانيقِ
وأمواج اللّآلي من أزاهير الكرز

- ٢ -

تبدأ الغربةُ من سوسنةٍ في أرجوانِ القلبِ
تنشقُّ إلى نصفين:
نصفٌ يحضن الذكرى بإشفاقٍ
ويرجو لك ألاّ تفقد الرؤيا
ونصفٌ يتهاوى في شعاب الليلِ
آلافَ الشظايا

- ٣ -

في السراديبِ التي تمضي إلى حانة ميشيما
وقد تُفضي إلى فردوس بوذا
تلج الأنفاقَ مرعوباً كوعلٍ
لم يرثْ من جذره المدفونِ في باديةِ الشَّامِ
سوى داء الفزع
في سراديب التَّعري والتناغي والوجع
تغتلي رامحةً تترى خيولُ الكهرباء
وهي تلقي بك من تيهٍ إلى تيهٍ..
فسبحانَ الّذي أسرى بعبدِه
والفتى يَخْبِطُ كالعشواءِ في أدغال رُبُونْغي
ولا يدري متى إنجاز وعده

- - -

قيل لي عند التأسي:
إنَّ أطيافَ القمر
ربما وافَتْك في أيلول أو نيسانَ
لا توصد شبابيك الأمل
وانتظرْ موسمك المخبوء في برج الحمل

لا تخفْ.. إن بريد الشّامِ آتٍ
في جناح الغيم، في عب المطر

- - -

أقبلتْ مكسورة الجنحينِ
واسترختْ على صدري كعصفورٍ مهاجر
قلتُ: لن أسأل «من أين؟..
إلى أين؟.. ومن أنتِ؟»
ولكنْ،
لا تنامي ها هنا، جو القطار
يتنزّى بالكوابيس وأشباح الطيور الغرباء
بيتنا - أقصد (كوخي) - ربما أقربُ
من دارِكِ في أقصى تخومِ الصينِ..
هل يأخذنا، يوماً، بساطُ الريحِ
أو أشرعةُ الموجِ إلى السورِ العتيد؟
عاجلتني نظرة طافحة بالخوفِ
كالخنجرِ في قبضة طفلٍ مثخنٍ بالجوعِ:
«هل جئتَ مع السَّيَّاحِ
في قافلة الغربِ السعيد؟»
قلت: أشجاري لها جذرٌ عميق الغورِ
من إثلا إلى بدرٍ
ومن مئذنة الأقصى
إلى آخر جرحٍ في بلاط الشهداء
كيف تستبقين أغصانك بتراء؟
أهذا حلم الفجر البعيد؟

- - -

سحبٌ غبَّشت المرآة في ضحوة عينيها
دعاها هاجس الكتمان أن تهرب من أسئلتي:
«هل تشرب القهوة في أعلى مغاني طوكيو؟»
أحسستُ خوفاً مبهماً - لا بأسَ، هيَّا
واعترتني رجّةٌ، موج دُوارٍ عبثيّ:
أوقفي - أرجوكِ - هذا الفرسَ الجامحَ
يكفي ها هنا
وارحمي عمَّكِ يا ريحانةَ الصيفِ الذي ولّى
ضلوع الخشب المنخور لا تقوى على حمل المزيد

- - -

تنحني نادلة الحانةِ..
«فنجانين، يا سيدتي، من قهوة التُّركِ الشهيّه».
- ربما، قبل انكساراتِ الرؤى، كانت تسمَّى عربيه! .
«اتركيها لحظة تغلي.. وزيدي نسبةَ الهالِ
أعيدي هالةَ الأحبابِ تزهو
في رحابِ النَّوْفَرَه!»

- - -

- ضيفنا المكسوف آتٍ من بلاد السندباد
فافتحي الشُّبّاك واختاري له إطلالةً
ينشرح الصدر بمرآها ويهتزُّ الخيال.

- - -

رشفةٌ أولى.. وتنقضُّ الكوابيسُ
يكاد الحلم أن يطفر من نافذةِ البرجِ
- تماسكْ يا رجل
واستعدْ حقَّك في عشقِ الحياة
ملكٌ أنت هنا في الطابق الستين،
روحٌ مفردٌ لا نِدَّ لك
والمدى مملكة فيحاء كالغوطةِ
بحرٌ من رؤى يمتدُّ من حريَّةِ الصوتِ
إلى راعيةِ الميزانِ في صدر الفلك.
. . رشفةٌ ثانيةٌ
يبرد الحلم ويخبو
أنت منبوذ هنا في رهبة الإعصارِ
تهذي دون مأوى أو كساء
وضيوفُ الحانةِ انفضُّوا مع الفجر سكارى
وانتهوا كالغرباء
فلماذا يخلطون النفطَ والإسلامَ والإرهابَ
في بوتقةٍ واحدة دون غطاء؟
ولماذا سلخوا جِلدَك مرَّاتٍ
وخاطوه مع الليلِ
سراويلَ نساء:
«زوجةٌ واحدةٌ عندك أم أربعُ؟
هل ترغبُ في خامسةٍ
تغنيك عن جوع البريد؟»
شهقت عرّافة الحانةِ:
«بارك جسدي قبل صياح الديكِ
يا مولاي هارون الرشيد!»

— ٤ —

حدّثوني عرضاً عن رهبة الزلزال
عن هول الثواني
ساعةَ الأرضُ تميد
والسماوات تدور
«وترى الناس سكارى..»
- صدق الله العظيم.
أبداً لم يغفلوا أن يغسلوا روحي
بأنداءٍ من الذكر الحكيم

- - -

كيف تمضي ليلك الضاري؟
ولا صوت صديقٍ يؤنس الروحَ
ولا ظل امرأه
يتولّى جسمك المحمومَ
يجتاز به موج الصقيع الحجريّ

- - -

يلبس الزلزال في الحاناتِ شكلَ امرأةٍ
تعتصر الروح مع الأنفاسِ
في حشرجة النزع الأخير

فإذا الأرض تمور
والسماوات تمور
وأرى الأشياء والناس سكارى..
كيف قاومت نداءَ الجسدِ الناريَّ
لم تلتمِس الرُّمَّانَ في أشهى تجلّيهِ
ولم تحفل بديكِ الجنِّ
يا شيخ المعرَّة؟
هاتِ زوِّدني بما أوتيتَ من صبرٍ وحكمه
كيف تروي مارج الجمر الذي يزداد في الليل استعارا؟
ووراء الشعر والخمرة والزلزال نجمٌ
يشبه الشَّامَ.. ولكنْ
كلّما حوَّشتُه في لهفةِ القلبِ
توارى.

— ٥ —

لم يكن قلبي معي عند اللقاء
كنت قد خلَّفته بين جراح القدسِ
مطويّاً على أشلاءِ طفلٍ في جريده
همست: هل نأخذ «الساكي» معاً
حتى شهيق الفجرِ؟
لكنَّ أكيكو..
وقفت دون التمادي في الشراب
فاستفاق الليلُ يهذي كغراب
وتلوَّى في سراديب الأسى
نهرُ الغناء.
وأكيكو طفلة تدرس تاريخ الحروب
وأنا أقرأ في مرآةِ عينيها
جنوني .. وهلاكي
وردة مثقلة الرأسِ
بأوجاع ضحايا ناغاساكي
قلت: هل أنتِ فلسطينُ
لكي أصلب في محنتها عمري؟
دعيني..
ليس في أفقي فلسطين جديده
- يا دم الأطفال في حمَّى ليالي سراييفو
معذرة! .
أيها الشرقُ الخرافيُّ العجيب
ردَّ لي قلبي لكي يشهد ميلاد القصيده

— ٦ —

كلما ضيَّعت في إعصارها المحمومِ
أو في صحوها الثلجيِّ
فانوسي ودربي
أشتهي كالطفل أن أحكي لها
سيرةَ قلبي
هي في الأرض مع الدولار والسَّاكي
وأحلامك - يا مسكين - ترعى في السحاب
أنت طفل غادرته أمُّه نهبَ المنافي
قبل عشرين انتحار.
آه، يا إشراقة النُّعمى ويا خمر القصيده
نسي المغدور أن يبعدَ
عن خنجرك الغالي وريدَه
يا مساكو! ما الذي يفعله الحبُّ بنا؟!
كركرت، غرَّد شلالٌ من الغبطةِ
في أوصال غاب الخيزران:
يا صديقي، ما الذي نفعله بالحبِّ؟
قل لي..
جسدي - حريتي
ملكي
ولا فائض في وقتي
لكي أسفحه - شرواكَ! .
في صيد الذباب.
فاترك العشق لفرسان الحكايا
والجواري
وافتح باباً جديراً بالحوار

— ٧ —

يشرق الوجه المغوليُّ
ويجلو عنك ثارات بني عبسٍ
يداريك لكي تغفر أو تنسى
دماً مازال يغلي
في حنايا أمك الثكلى
فهل تملك غيرَ المغفره؟
ليس بين الحربِ، يا سيدتي، والحبِّ
إلا نيَّةُ الفرسانِ
فاختاري لنا وقتاً وركناً
لاختبار الرغبات المضمره
ربما كنتم ضحايا مثلنا
ربما لم تقرئي تلك الفصولَ الدمويَّه
ربما تنسين قبلي
مثلما أنسوكِ ذكرى هيروشيما
ربما ننسى معاً.. أو نتناسى
في ظلال الحب
أهوال العصور الهمجيه.

- - -

يسرق الليل حُبيباتٍ من النجوى
ويذروها نجوماً في سماه
ولعينيها أفادي بضياء العينِ
لو أدرك ما يخفيه رأسُ القبَّره!

— ٨ —

يقبل الليل ويسترخي
غراباً هرما في مقبره
لم يكن سربك معتاداً على جو السهوب المقفره
فاعتكفْ داخل تابوتِ هلامي من الشعرِ
أو اهربْ عبر أبوابِ السماء
علَّ أطيافاً من الشامِ توافيك..
تردُّ الروح أو تحنو على القلب اليتيم
لمسة تشعل مصباح علاء الدينِ
يصحو مارد الحلم القديم
- هاتِ لي أشهى الرياحينِ
وأغلاهنَّ دفئاً وجنونا.
تعبر الأفق ثُريَّا..

(آه، من يقوى على النسيان يا بنت الهلاليّ؟)

ثريا.. يستحمُّ الكون في آلائها
تفتح للعشّاق فردوس المسرّاتِ
فَمَزِّقْ خجل القرية واقطفْ
من جناها ما تشاء
ربما لم تكُ من جنس النساء
ربما جِنِّيَّةً كانت.. ومازالت
يضيء الليلَ نهداها بنبعينِ
من الخمر أو الرمانِ
أو من خمرة الرمانِ
لما تتعرّى
تتعرّى.. تتعرّى.. تتمادى.. تحتويك
ـ أمهليني لحظةً بالله يا سيدةَ الغيثِ الحميم
علّني ألتقط الأنفاسَ
أو أدخل مصعوقاً نعيم التجربه
واعلمي أن الفتى لا يرتضي في حبه
أيّ شريك
أنسيتِ العنزة الجرباء والنبع القديم؟!
جلجلت ضِحكتُها..
أنَّ زجاجُ النافذة
وتهاوى
ضِحكها؟.. لا، أبداً
ما كان معروفاً بهذي القسوة النكراءِ
لم تسمح لهاوٍ باقتراف اللغة المضطربه
لم تكن تلك ثريّا
لم تكن تلك التي هام بها
صاحبنا أحمدُ
فاختارت له صاعقةً موقوتةً
في عروةِ القلبِ
تلقّاها رضيّا.
إنه الرعد الذي يطعن أحشاءَ السكينه
تاركاً قلبك ريشاً نازفاً
بين طواحين المدينه
أغلقِ الشُّبّاكَ..
لا جدوى من التحديق في ليل السكارى
وبريد الشامِ..
لا أطياف تستهويه في الأفق الضنين
فلتصن وجهك من لفحة أنواء الحنين
ودَعِ القلبَ على طيبتهِ
مائدةً شاميّةً بين مئات الأغربه

ـ ٩ ـ

يرمح الدرب إلى إيزو
على زيق الخليج
وحقول الشاي تستدعي أريجَ الشيحِ
في بادية الشامِ
هل الذكرى ضناك الأبدي
إن تغص حتى عروق الماءِ
أو تطفر إلى أوج المجرّاتِ
فمن ينجيك من لفح الأريج؟
الليالي عَبَّأت مجمرةَ العمر رماداً
فاشتعلْ في لجة الليلِ
عسى أن تشعل الدّنيا
بما يختزن الزيتون من وهج الشرر
أو تناثرْ كالفراشاتِ التي
أحرقها الحرمانُ، تاريخٌ من الحرمانِ
في مائدة السفح البهيج
غربةٌ.. أو كربةٌ.. أو لعبةٌ
آثرت أن تبلوها في عبث الريحِ
فهل تقوى على دفع الثمن؟
قلت: لا بأس، غداً أجمع أشتاتي
وأختار فراشاً أبديَّ الليلِ
في حضن الوطن
وسواء كان مأواك هنا
حلماً شهيًّا..
أو حُميًّا لوثةٍ..
أو واقعاً زيَّنه العيشُ البهيميُّ
بأبهى ما ترى..
أم لم يكن
فانتزعْ روحك من ذاكرةِ الأحبابِ
كي لا تتشظّى مرتين
واترك الباقي لأهواء الزمن

طوكيو

هوامش

في مستهل الستينات مضى عبد الباسط الصوفي إلى غينيا لتدريس اللغة العربية، لكن حتى «مكادي» الأفريقية اختطفته... وليس لك هنا إلا أن تقاوم رطوبة المحيط وحرارته الخانقة.. لأن الحياة تجربة لا تتكرر ولا تستعاض.

الغرانيق أو الكراكي Tsuru من أجمل الطيور، واليابانيون يتفاءلون بها.. ومن يستطع أن يصنع ألف دمية ورقية منها تتحقق رغبته ـ كما يقولون. أما موسم أزهار الكرز Sakura في نيسان (إبريل) فلعله من أجمل أعياد الطبيعة واحتفال الناس بها.. والكرز هنا زهر بلا ثمر.

معظم أسماء النساء في اليابان تنتهي بـ«كو» Ko. وهذا الحرف/ الكلمة معناه في الأصل «طفل» ـ ابن أو ابنة. وانتهاء الأسماء الأنثوية به أشبه ما يكون بصيغة التصغير للتحبب في بعض الأسماء العربية.

ثريا الهلالي: عنوان رواية للصديق «دياب عيد» وفيها الكثير من أحلام جيلنا وخيباته، فضلاً عن الدلالة الرمزية لهذا الاسم.

الاحتفال بالجسد في الفن والإعلام والحياة، كجزء من الاحتفال بالطبيعة، من أهم المظاهر التي تلفت أنظار الغرباء ـ ولاسيما إذا كانوا مثقلين بتاريخ طويل من المحرمات.

Roppongi من الأحياء المشهورة في طوكيو، ولاسيما للأجانب.. وفيه عدد من السفارات.

النوفرة: مقهى شعبي معروف عند البوابة الشرقية للجامع الأموي في دمشق، وكان الأديب الراحل حسيب كيالي، وعديد من الكتاب والفنانين مولعين بالجلوس هناك.

ناغاساكي، هكذا يلفظها اليابانيون، لا ناغازاكي كما يلفظها الغربيون.

الساكي: شراب معروف يصنع من الرز.

يقول المثل الشعبي في ريف حمص: «العنزة الجرباء لا تشرب إلا من رأس النبع».

إيزو: من المناطق الجبلية الجميلة، جنوبي طوكيو، تكثر فيها الينابيع الحارة.